جامعـــــة الموصـــل

كليـــــة الآداب

قسم : علم الاجتماع

اسم المادة الدراسية: نظريات - دكتوراه

اسم التدريسي : ا.د. شفيق ابراهيم صالح

العام الدراسي 2024-2025

تاريخ النظرية الاجتماعية

1-المراحل التاريخية الأولى:-

ما يقال عن النظرية الاجتماعية في أبسط تعريفاتها، انها جهد فكري يحاول ان يصور الواقع، ويخضع قيمه ومثله، وقواعده السلوكية للتحليل من اجل الخروج بمنهج معرفي او تجريبي ، لفهم حاضره، وخلق قدرة على التنبؤ بمستقبله، على الاقل في الخطوط العامة.

في ضوء هذا تدخل محاولات المفكرين الأوربيين (الفلاسفة الاغريق والمحدثين خاصة) ضمن جذور النظرية الاجتماعية، لأن معظمهم ان لم يكن كلهم قد حاولوا، ان يقدموا تصورات نظرية. تمثلت بـ :

1-المنهج: ان المنهج الذي اعتمده القدامى، كان فلسفياً، بحتاً شهد تطوراً، ازاء تطور الفلسفة ذاتها.

2-العمومية: باستثناء الفلسفات الفردية كالابيقورية، حاولت الفلسفة ان تعطي تصور شامل لعموم الفكر الانساني، على خلاف النظرية الاجتماعية الحديثة التي لا تستطيع ان تقفز الى العمومية دون ان تمر بمراحل بحثية تخضع فيها للاختبار التجريبي.

اما نقطة الاتفاق بين المفكرين القدامى والمحدثين فهي (العقل)، مع الاشارة الى اختلاف مفهومه باختلاف مفاهيم الفلسفة عبر مراحل تطورها فهو:

1-عند الاقدمين الإغريق وحتى القرن الثامن عشر كان ذو طابع نظري، ولم يتمخض منه الا النظري، اما في العصر الحديث فقد نتج عنه، التجريب والوضعية. من جانب فانه قد اصطبغ بالعلمية التي بدأت تصبغ عموم المرحلة الاخيرة من مراحل تطوره على يد (اوجست كونت) الذي حاول ان يضع الاسس الابستمولوجية – الوضعية لعلمية المعرفة.

2-اكاديمية البحث العلمي، التي لم تكن تحمل ابعاد منهجية، وأطراً مقننة عند الفلاسفة القدامى للفكرة المطروحة، وانما كانت الافكار تطرح حسب سليقة الفيلسوف نفسه، على خلاف اكاديمية البحث العلمي في الوقت الحاضر التي تلتزم بقواعد بحثية اصبحت معروفة في الوقت الحاضر بخطوات البحث العلمي[1].

اما عند قراءة العقل الهندي[2] نجده تضمن جانبي التجريد والتجريب. وكانت الغلبة للتجريد على حساب التجريب. والتجريد الهندي لا يحمل سمات العقلانية، بقدر ما يحمل سمات الصوفية، وفي كثير من الاحيان ملامح (الفنتازيا) (الخيال).

---

[1]) جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الكتاب الأول، ت: حسن جلال العروسي، دار المعارف بمصر، ط1، 1971، ص50 – 93.(

يقوم الفكر (العقل) الهندي على فكرة الخلاص، والسؤال الذي يثار هنا ، لماذا الخلاص، وممن الخلاص؟ وللإجابة على هذا التساؤل نستذكر احد اقوال بوذا[*] (الحياة ام الشرور)، وبواسطة اللغة المنطقية التي يعتمدها علم اجتماع المعرفة، ان نستدل على ان واقع الحياة الذي خبره بوذا، وما لمسه فيها (الحياة) من مشاكل ومساوئ ومأسي يعيشها الشعب الهندي خاصة تنظيمه الطبقي، هو الذي دفعه الى ذلك القول، وهو ذات السبب الذي يدفع الفرد الى الخلاص من ذلك الواقع الصعب الذي يعيشه الهندي. ولعل شدة الاعتقاد لدى الانسان الهندي بطبقيته الاجتماعية، لم تجعله مقتنعاً برأي بوذا في رؤيته تجاهه، وربما كان هذا هو السبب الذي أدى الى انحسار الدين البوذي في الهند.

نستطيع ان نقول انه كانت (فكرة الخلاص) لدى الهندي تحمل بعدين :

الاول: تقريري: يقر بحتمية تنظيمه الطبقي حيث لا أمل في حياته الحاضرة من الخلاص من قيود مجتمعه ونواهيه و ... الخ .

الثاني: متمني: فطالما لا يمكن الخلاص من ذلك الواقع ، فانه على الاقل يمني نفسه بحدوث التغير في حياته الاخرة. فهو خلاص آخروي. ان بعدي فكرة الخلاص تفسر سيادة نزعة السلم لدى الهندي ، فهو يعمل صالحاً في دنياه، احترامه للقواعد الاجتماعية وما الى ذلك كي يعيش سعيداً في آخرته.

بينما ذهب العقل الصيني[3] الى تحديد الواقع الاجتماعي الذي غلبت عليه العملية، طابع الفكر، وخير تمثيل لنمط العملية، القواعد التي ثبتها (كونفوشيوس)[*] لاختيار الموظفين في دوائر الدولة، وقد اغفلت هذه القواعد، خلفية المتقدم للحصول على الوظيفة، الاجتماعية والطبقية، وجعلت معيار النجاح في الامتحان قدرات المتقدم العلمية فقط.

) فؤاد محمد شبل، حكمة الصين، ج1، دار المعارف بمصر، دون تاريخ، ص327– 328؛ وأيضا: اليان – جـ ويد جيري، المذاهب الكبرى في التاريخ: من كونفوشيوس [2](
الى توينبي. ترجمة: ذوقان قرقوط، دار القلم، بيروت – لبنان، ط1، 1972، ص31–71 وايضاً سرخبالي راد كريشنا، الفكر الفلسفي الهندي، ترجمة: ندرة اليازجي، دار اليقظة العربية، 1967، ص299–301 / ص325–455.

(*) بوذا (سندهارثا): ويعني كل أمانيك مجابة، ولد عام 563 ق.م في مدينة لومبيني – النيبال، تقوم فلسفته على التأمل ويقال انه بفضل التأمل بلغ التنوير ثم انطلق يبشر بما توصل اليه من آراء ويجوب الهند داعياً اليها، وصار له اتباع رسل واستمر في دعوته للتأمل والسلم حتى وفاته 480 ق.م في وقت انتشرت فيه البوذية في مواطن عدة.

) فؤاد محمد شبل، مصدر سابق، ص178 – 200، ص222 – 227؛ وايضاً ألبان جـ – ويد جيري، المذاهب الكبرى، مصدر سابق، ص10. 3(

(*) كونفوشيوس: ويعني الملك الفيلسوف، ولد في مدينة تشيفو 551 ق.م. وتوفي في مدينة ليو 479 ق.م. فيسلوف صيني تقوم فلسفته على القيم الأخلاقية الشخصية، التحق في شبابه بخدمة الحكومة، حوالي سن الستين استقال، وأنشأ مدرسة يعلم فيها تلاميذه افكاره تمهيداً لأرسالهم الى الارياف لم يدون افكاره ويقال ان اتباعه فعلوا ذلك

لقد اصطبغت العملية الصينية بطابع النفع العام، ويرتكز جوهرها على ما يسمى بـ (القاعدة الذهبية) التي سنها كونفوشيوس (لا تفعل بالناس، ما لا تحب ان يفعله الناس بك) فضلاً عن ما يسمى بـ (المحبة الجامعة) حسب تسمية (موتزو)[*4]، وهي محبة تحقيق الرفاه العام للمجتمع وليس الحلم به

آمن العقل الصيني بموضوع التغير الاجتماعي، من هنا فانه كثيراً ما تضمن (التغير الاجتماعي) معظم الفلسفة الصينية التي كانت تحث المؤمنين بها على القيام بالفعل الاجتماعي، الذي من شأنه ان يتجه بالعمل والمجتمع نحو الصلاح، والرفاه العام، ولعل شدة اعتقادها بأهمية التجريب على التجريد دفعها الى أن تعد معتنقيها اعداداً عسكرياً فضلاً عن الاعداد الفكري، بل وتلزمهم على تغيير المنكر لحظة رؤيته في الشارع (موقع وجود الناس). وبذلك اختلف العقل الصيني عن العقل الهندي بواقعيته الشديدة الوضوح.

اما تاريخ البحث النظري عند العرب فقد سار بشكل تدريجي بعد ظهور الاسلام الحنيف، الذي شجع العلم والمعرفة. ولهذا ما كاد يمضي القرنان الاول والثاني الهجريان (الثامن والتاسع الميلاديان) حتى تمت عمليات الترجمة والنقل وتبلورت فلسفة عربية اسلامية خالصة (بعد ان هضمت الفلسفات الهندية والصينية والفارسية والاوربية)، خلال القرن الثالث الهجري (العاشر الميلادي).

يمثل علم الكلام[5] بدايات الفلسفة العربية واختلف مؤرخو الفكر حول دواعي ظهوره الى فريقين:

الاول: ذهب الى ان اصوله تعود الى القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة باعتبار ان الكلام من لوازم الدين، حيث يتطلب الامر ، الاستدلال والقياس

، (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) .

، وهو فيلسوف صيني، Mo Ti (470 ق م – 391 ق م) اي المعلم مو، حيث تزو تعني معلماً، ويعرف أيضا بـ مو تي Mo Tseu او Mo Tzu[*] موتزو ولد موتزو Confucianism والكونفوشية Taoism، ثالث المدارس الفكرية الصينية القديمة بعد الطاوية Moismومؤسس المدرسة الفلسفية المعروفة بالمووية موطن راس كونفوشيوس، وحسب راي بعض المؤرخين أنه وُلد ونشأ Lu، ونشأ في اسرة متواضعة نسبياً في لو Confuciusبعد عدة سنوات من وفاة كونفوشيوس بدأ موتزو كونفوشياً واستوزره عدد من الاقطاعيين، ثم اتجه الى التدريس، وأنشا من خلاله نظاماً كنسياً من الأتباع Song – huaوعمل بادئ الأمر في سونغ هوا المتكافلين، وارتد عن الكونفوشية، وانتقدها لسلفيتها الشديدة وتفسيراتها الحرفية للنصوص القديمة.

الأوائل في الصين، فقد اقام مذهبه على فكرة المحبة الجامعة العالمية علاجاً للفوضى والنزاع، وسلاحاً utilitarianismويعد موتزو من رواد مذهب المنفعة ثلاثي تُقوم بمقتضاه الاقوال والغايات طبقاً لموافقتها لقواعد السلف أولاً ولإمكانية التطبيق ثانياً، ومقدار ما pragmatismضد الحروب، وعلى معيار براغماتي تحققه من خيرات ثالثاً.

) عبد الرحمن بدوي، مذهب الاسلاميين، ج1، المعتزلة والاشاعرة، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1971، ص17/ 493 وما بعدها. وايضاً احمد محمود صبحي: 5(في علم الكلام، ج1، المعتزلة، مؤسسة الثقافة الجامعية، ط4، 1982، ص116 – 161 – 165 – 171.

الثاني: ذهب الى انه قد نشأ ضمن ظروف فرضتها عوامل الاجتماع السياسي، بعد دخول الامم المتعددة المذاهب والاديان الى الاسلام ودخول المندسين على الحضارة الاسلامية فانبرى علماء الاسلام للدفاع من العقيدة بذات سلاح المهاجمين، وهو استخدام الحجج العقلية من أجل الاقناع الذي لا يأخذه الباطل من أي جانب.

ومن صلب علم الكلام نشأة الفلسفة الاسلامية، ومن امتداداتها الفلسفة الاشعرية التي انتجت (الامام الغزالي)[6](*)، واتجاهه الصوفي، وبالتوازي كانت هناك الافلاطونية العربية على يد (الفارابي(**) وابن سينا(***))، وسيادة النزعة العقلانية الاجتماعية العلمية (ابن رشد)(****)، ثم الاجتماعية -الواقعية- العلمية (ابن خلدون). وكان من سوء حظ الانسانية انه لم يخلف (ابن خلدون) احد ليواصل مسيرته العلمية، فكان هو آخر الفلاسفة العرب المبدعين على صعيد الفكر الاجتماعي. حتى بدايات عصر النهضة العربية.

2- المرحلة التاريخية الحديثة والمعاصرة :

يواجه كل عمل يستهدف ابراز ظروف النشأة في العلوم الانسانية والاجتماعية صعوبات عديدة في مقدمتها العمق التاريخي، وصعوبة تحديد نقطة الانطلاق، واذا كان انتماء هذه العلوم الى الفلسفة واحداً من الصعوبات، فإن تشخيص فكرة التميز في الانسلاخ من رحم الفلسفة صعوبة اخرى، اذ لا يمكن ان تكون الولادة على هذا الصعيد ولادة قيصرية، ومفاجئة، وانما

) ماجد فخري، دراسات في الفكر العربي، دار النهار للنشر، بيروت، **1977**، ص**29/125/193**.**6**(

(*) الأمام الغزالي ولد في مدينة طابران عام **450** هـ وتوفي عام **505**هـ عرف كأحد مؤسسي المدرسة الاشعرية في علم الكلام، له بصمة في الفلسفة والفقه والمنطق والتصوف رحل الى بغداد مدرساً في المدرسة النظامية، اعتزل الناس متفرغاً للعبادة متأثراً بالصوفية رحل من بغداد حتى انتهى به المطاف في طوس في رحلة استمرت **11** عاماً، كتب خلالها كتابه الشهير (احياء علوم الدين) وهو خلاصة لتجربته الروحية.

(**) الفارابي: ابو نصر محمد الفارابي هو ابو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي ولد عام **260** هـ **874**م في فاراب في اقليم تركستان (كازخستان حالياً) وتوفي عام **339**هـ/**950**م. فيلسوف مسلم اشتهر باتقان العلوم الحكمية وكانت له قوة في صناعة الطب. ولد الفارابي في مدينة فاراب، ولهذا اشتهر باسمه، نسبة الى المدينة التي عاش فيها، كان ابوه قائد جيش، وكان ببغداد مدة ثم انتقل الى سوريا وتجول بين البلدان وعاد الى مدينة دمشق واستقر بها الى حين وفاته. يعود الفضل إليه في ادخال مفهوم الفراغ الى علم الفيزياء، تأثر به كل من ابن سينا وابن رشد. تنقل في انحاء البلاد وفي سوريا، قصد حلب واقام في بلاط سيف الدولة الحمداني فترة ثم ذهب الى دمشق واقام فيها حتى وفاته عن عمر يناهز **80** عاماً ودفن في دمشق، ووضع عدة مصنفات وكان اشهرها كتاب حصر فيه أنواع واصناف العلوم ويحمل هذا الكتاب اسم احصاء العلوم. سمي الفارابي "المعلم الثاني" نسبة الى المعلم الاول ارسطو والاطلاق بسبب اهتمامه بالمنطق لأن الفارابي هو شارح مؤلفات ارسطو المنطقية.

(***) ابن سينا (الشيخ الرئيس) ولد عام **370** هـ في قرية أفشنة من ضياع بخارى أحدى مدن بلاد ما وراء النهر. تعد فلسفته امتداد لفلسفة الفارابي، أخذ عنه نظرية الفيض وطور نظرية النفس، وصاغ براهين اثبات وجود الله كفره الكثير منهم الامام الغزالي وابن كثير.

(****) ابن رشد ولد عام **520** هـ في قرطبة وتوفي في مراكش عام **595** هـ فيلسوف وفقيه وطبيب وقاضي وفلكي درس الفقه على المذهب المالكي، والعقيدة على المذهب الاشعري، صحح للعلماء وفلاسفة سابقين له كالفارابي وابن سينا اشتهر بكتاب تهافت التهافت، رائد الخط العقلي في الفلسفة، تعرض أواخر حياته لمحنة ابعدته عن قرطبة الى مراكش حيث توفي فيها

تكون وفق مراحل تطول او تقصر، تنزاح فيها قشور هذا العلم الجديد حتى تبدو للعيان نواته في مؤلف او اكثر بداية القطع المعرفي للعلم الاجتماعي او الانساني الجديد.[7]

ومن صعوبات ظروف الولادة هو الاتفاق على مؤلف او عالم بعينه خاصة اذا كانت المرحلة الحضارية التي شهدها القطع المعرفي، قد اسهمت في افراز اكثر من مفكر له اثر في العلم وفي علم الاجتماع على يد أغست كونت[*] (1798-1857) اول من استعمل كلمة سوسيولوجيا ، لكن عمله بقي نظري يمتزج فيه المثال بالواقع ، مع تغليبه الاول على الثاني خاصة في حلوله التي اقترحها لمعالجة الجوانب الاخلاقية حين نصب السوسيولوجيين كهنة يوجهون الناس الى طريق الفضيلة وفي الجوانب الاقتصادية حين خص الصيارفة والاغنياء على بذل المال لانجاح المشاريع التنموية.

كما يندرج ضمن الصعوبات آليات تصنيف المفكرين ضمن اي من الاتجاهات النظرية . . حيث ينضوي العديد من العلماء ضمن اكثر من مسار فكري...[8] فألفريدو باريتو[*] يصنف ضمن العضوية – الوضعية، كما يمكن تصنيفه ضمن باه الصراع وضمن الاتجاه السياسي، وكذلك الحال بالنسبة لجورج زمل[**] فهو الرائد للاتجاه الشكلي في علم الاجتماع ويصنفه البعض ضمن الاتجاه التحليلي، وسواهما كثير من العلماء .

ورغم تراكم العديد من العوامل التي اكتنفت ولادة علم الاجتماع الا انه يمكن حصرها بالثورات والمنظرون الاوئل, اما الثورات فانها تمثلت بما يأتي:

1- الثورات السياسية والتغيرات الاجتماعية:

ظهرت السوسيولوجيا في فترة تميزت بتقلبات سياسية وعسكرية عميقة مست النظام القديم القائم على ثلاثة مراتب وهي النبلاء والكنيسة والشعب. وفي هذا السياق يُعين الكسيس دو توكفيل[***] (1805-1859) بوضوح بين النسقين المتصارعين، نظام قديم مؤسس على سلم المراتب غير المتساوية وبالتالي المتفاوتة، ونظام جديد قائم على المساوة في الظروف.

(*) أغست كونت فرنسي (**1798 – 1857**) يعده البعض مؤسس علم الاجتماع وهو الذي صك مصطلح (السوسيولوجيا) العلم الذي يدرس المجتمع حسب مفهوم الوضعية، اشهر اعماله (دروس في الفلسفة الوصفية في ستة مجلدات) و (مذهب في السياسة الوضعية) في اربعة مجلدات طبق فيه مكتشفاته في علم الاجتماع النظري.

(*) الفريد باريتو الايطالي ولد بباريس (**1848 – 1923**) عمل مهندساً قبل ان يتحول الى علم الاجتماع وعلم الاقتصاد واشهر كتبه (الانظمة الاشتراكية (مقدمة في علم الاجتماع)، أكد اتجاهه الاجتماعي على الطابع العلمي (الامبيريقي) وذهب الى ان العلوم الطبيعية تنهض على دراسة الوقائع وتصنيفها، ويتعين علينا فعل ذلك بالنسبة لعلم الاجتماع، وهو بهذا جمع بين العلوم الوضعية وبين العلوم العضوية.

(**) جورج زمل (**1858 – 1918**) عالم اجتماع وفيلسوف الماني، ولد في برلين وتوفي في ستراسبورغ، له اهتمامات نظرية عديدة في مجال علم الاجتماع الحضري، والانسان الهامشي، إلا ان اطروحته عن الشكل في العلاقات الاجتماعية كانت اشهرها، ومفهوم الشكل عنده بناء فكري وعقلي يساعد على تحليل الواقع، ويُعيّن ما ينتج عن التفاعل الاجتماعي بين الافراد او الفاعلين.

(***) الكسيس دو توكوفيل (**1805 – 1859**) مؤرخ سياسي فرنسي اهتم بالسياسة في بعدها التاريخي، اشتهر بكتابه (الديمقراطية في امريكا) **1835** الذي يُعد اليوم من الاعمال المبكرة في علم الاجتماع وبَرَّزَ في هذا الكتاب تأثير المساواة في الظروف الاجتماعية على الفرد والدولة في المجتمعات الغربية. كان مشاركاً فعالاً في السياسة الفرنسية **1830** وحتى **1851** حيث قام لويس نابليون بونابرت بالانقلاب على الجمهورية الثانية.

تمخضت عن هذه الثورة السريعة اصلاحات الامبراطورية الاولى وتصورات جديدة حول المجتمع لم تعد قوى حفظ النظام قادرة على احتوائها، فشهدت أوربا ثورات 1830 و 1848 تبنتها حركات سياسية معارضة لم يستطع القمع البوليسي منعها، وانهارت على اثرها انظمة مختلفة في فرنسا والمانيا والنمسا، وهيأت ظروفاً تنبه العقول، خاصة في فرنسا حيث تعاقبت انظمة متعارضة جداً؛ امبراطورية فملكيتين تهاوتا أمام الثورات، ثم جمهورية عملت بالاقتراع العام (1848) لم تعمر طويلاً ، فامبراطورية جديدة، وأخيراً جمهورية الى غاية الحرب العالمية الاولى وأستمرت بالبقاء.

على الصعيد الايديولوجي تصارعت في هذه الحقبة ايديولوجيات متعارضة – محافظة – ليبرالية – تضامنية – ثورية – وضع اعتبره بعض علماء الاجتماع أمثال سان سيمون(*) (1760-1825) واغست كونت واميل دوركهايم(**)، المدافعين عن نظام اجتماعي مستقر، يدل على ضعف المجتمعات، ومؤشر على سقم في الكيان الاجتماعي، وظهرت على انقاض القانون الطبيعي لفلاسفة عصر الانوار العقلانيين اكثر النظريات رجعية التي طالبت بالعودة للنظام القديم، وتزامناً مع ذلك برزت اكثر النظريات شجاعة واكثرها طوباوية[9] اتسمت في غالبها بطابع اصلاحي هدفه اعادة بناء المجتمع، تعارضت وجملة الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي كان من الصعب اصلاحها بين يوم وليلة في ظل ظروف الانتقال الاجتماعي من المرحلة الاقطاعية الى المرحلة التجارية الى المرحلة الصناعية، وكان لهذا التعقد اثره الكبير في تباين وتفاوت الحلول والمقترحات التي قدمها مفكرو هذه المرحلة ما بين فلسفة محافظة عند كونت ، الى اشتراكية علمية عند ماركس، وأخرى اخلاقية عند دوركهايم، والى غيرها من الفلسفات التي يمكن تجزئتها الى ثلاث: اولها تدخلية تؤمن بفاعلية العلم في احداث التغير وتحقيق الانتقال الى حال افضل كما هو الحال عند اصحاب النزعة الوضعية، وثانيهما: حيادية ترى عجزاً في فاعلية العلم التي رفع لوائها فيبر(*) وباريتو وثالثهما وسطية آمنت بوضعية وسطية ترى انه من الضروري ان يؤدي العلم الى الفعل الملموس ، لكن ذلك يتطلب وقتاً.[10]

2-الثورة الصناعية والتدهور الاجتماعي:

اذا كان لفرنسا الدور الكبير في نشر الافكار السياسية ، فان انجلترا من جهتها صدرت نمط الانتاج الصناعي الذي حول بصفة عميقة تنظيم العمل، فكانت مخبراً حيث جربت تقنيات جديدة في الانتاج وتسيير اليد العاملة، واكتشفت قوانين

(*) هنري دي سان سيمون (**1760 – 1825**) فرنسي الجنسية منظر اجتماعي – سياسي – اقتصادي شدد سان سيمون على الحاجة للأعتراف بجدارة الفرد والحاجة الى التسلسل الهرمي للجدارة في المجتمع والاقتصاد، انتقد بشدة تدخل الحكومة في الاقتصاد.

(**) اميل دوركهايم (**1858 – 1917**) فرنسي درس الاقتصاد والفلكلور عين بجامعة باريس **1902** استاذ علم الاجتماع، أخذ عنه تأكيده على الاتجاه الامبيريقي وأهمية المجتمع في تحديد السلوك الاجتماعي اشهر كتبه (تقسيم العمل) وهو اطروحته للدكتوراه وكتاب قواعد المنهج في علم الاجتماع الذي يُعد تطبيقاً لرؤيته العلمية في علم الاجتماع.

) جان بيار دوران، روبير فايل، علم الاجتماع المعاصر، ت. ميلود طواهري ، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية – ناشرون. بيروت – لبنان ، ط**1**، **9**(**2012**، ص**24** .

(*) فيبر (**1864 – 1920**) الماني درس لمدة سنتين في جامعة هايدلبيرج واكمل تعليمه في برلين حصل على درجة في القانون ودكتوراه في الاقتصاد اشهر كتبه (الاقتصاد والمجتمع) (الاخلاق البروتستانتية وردع الراسمالية) تدور افكاره حول الفهم التعاطفي والمعنى في السلوك، وله وجهة نظر عميقة في الادارة تتمثل بنموذجه المثالي، ويُعدُ ملهماً للعديد من النظريات الحديثة في علم الاجتماع.

الاقتصاد السياسي، التي كان على السوسيولوجيا أخذها بعين الاعتبار، وظهر على اثر ذلك وبصفة تدريجية نشاط بروليتاري حضري نَشِطَ ومَطلبي حاولت السلطات مراقبته بالتضييق على منشطيه او طردهم.

وبالنتيجة انتشرت ذهنية صناعية حقيقية خلفت آثاراً هدامة استشعرتها الجماهير العاملة تمثلت في فقدان تأهيل فوري للعمل الحرفي، والاستغلال الشرس البائس للعمال بأجور زهيدة فرضت عليهم دفعت بهم الى تشغيل أطفالهم في سن مبكرة لضمان بقاء المجموعة، وبالنتيجة استقطب تدهور أوضاع الطبقة العاملة انتباه الجمعيات الخيرية المهتمة بالسلم الاجتماعي، بل وكذا الحركات الاشتراكية التي اعتبرت هذه الاوضاع دليلاً على انعدام انسانية هذا النظام، والهيئات الحكومية المهتمة وعياً منها بضرورة وضع ترتيبات سياسية لتفادي تراجع مردود (قوة) العمل وعلى هذا الاساس يعتبر قرن التصنيع ايضاً قرن القوانين الاجتماعية وقد استندت الى دراسات وبحوث اجتماعية ذات نزعة علمية عن الفقر، واقتصاديات الاسر في فرنسا، وعن العمال ونمط المعيشة في المعامل، واستغلالهم في انجلترا، وعن وضعية الفلاحين في المانيا، حتى انه تجوز تسمية هذا القرن بقرن بحوث الولادة (ولادة علم الاجتماع) [11].

3-الثورة الصامتة (تقدم علوم الطبيعة) :

شهد القرن 19 تحولات جذرية في الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، وفي تطبيقاتها على شكل تكنولوجيات صناعية، واذا كان علم الفيزياء قد واصل بأدوات جديدة استعمال الرياضيات بهدف تُحرّكه حاجات الثورة الصناعية الانجليزية فلا شك ان نهضة الكيمياء والبيولوجيا طبعت بقسط وافر المحدثين، بحيث استعمل نموذجاها في نظريات سوسيولوجية. تناولت في الكيمياء مثلاً، المناظرة الكبرى لهذا القرن مسألة البنية الذرية للمادة من منظور شكك فيه العلماء الوضعيون الرافضون المضاربة الفكرية حول الاسباب النهائية، وتشكل الكيمياء العضوية مثالاً ثانياً في هذا التحول مع استخلاص المواد العضوية الذي تبلور في المانيا على شكل صناعة كيمياوية قوية.

وفتحت الفيزياء المقارنة المجال امام البيولوجياالحديثة فقدمت للتيار العضوي في السوسيولوجيا نموذجا متميزاً سواءً في فرنسا مع سان سيمون واغست كونت ثم مدرسة دوركايم، او في انجلترا مع سبنسر[*]، او في المانيا مع شافل (1831-1904) وتونيز[**] وغيرهما كثير. وتدريجياً تبلور منظور جديد حول العضوية والعلاقة ((عضو / وظيفة)) ميز البيولوجيا الطبية في القرن 19، حيث ارتبط الطب التجريبي بدراسة الوظائف الحيوية ومرضها، وعليه تخضع الصحة مثلها مثل المرض لقوانين معينة، واستعملت نظرية الكائن الحي المنبثقة عن التقليد الرومانسي الالماني مفهومي التنظيم الذاتي والسببية الدائرية.[12]

) جان دوران ، روبير فايل ، المصدر السابق، ص25 .11(

(*) هربرت سبنسر (1820 – 1903) انجليزي ينتمي للطبقة الوسطى، لم يتلقى تعليماً جامعياً منتظماً، عمل في الصحافة، له مؤلفات في علم النفس وعلم الاحياء وظل مبدأ (دعه يعمل) محركاً لكتاباتِهِ السياسية اول كتبه في علم الاجتماع (الاستاتيكا الاجتماعية) 1850 قدم فيه عرضاً لنظريته السوسيولوجية وجاء كتابه (المبادئ الاولى) عام 1880 ليتضمن المبدأ التطوري وقد قابل فيه بين المجتمع والكائن الحي وهو ما جعله رائداً للداروينية الاجتماعية.

[13]كما لا يمكننا ان نتجاهل تلك التحولات التي ادخلتها نظر داروين (1809-1882) ووالاس(*) (1823-1913) التطورية وقراءة ما كتبه مالثوس(**)

(**) فرديناند تونيز (26 يوليو 1855 – 9 ابريل 1936) عالم اجتماع الماني، كان احد المساهمين الرئيسيين في ارساء النظرية الاجتماعية والدراسات الميدانية، اشتهر تونيز بتمييز بين نوعين من الفئات الاجتماعية وهي المجتمعات العامة والجماعات المحلية، كما شارك في تأسيس الجمعية الالمانية لعلم الاجتماع، وتولى رئاستها بين عامي 1909 – 1933 عندما اطاح به النازيين.

ويعتبر تونيز المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع في المانيا المعاصرة وقد الف كتبا في علم الاجتماع منها كتاب (الجماعة المحلية والمجتمع العام) وقسم علم الاجتماع الى ثلاث فروع:

1 – علـــــم الاجتمـــــاع النظـــــري: وهـــــو دراســـــة الحقـــــائق الاجتماعيـــــة المجـــــردة.

2 – علـــــم الاجتمـــــاع التطبيقـــــي: وهـــــو دراســـــة العمليـــــات المؤديـــــة الى التطـــــور الاجتمـــــاعي.

3 – علـــــم الاجتمـــــاع التجـــــريبي: وهـــــو اســـــتخدام الحقـــــائق النظريـــــة في الدراســـــات البينيـــــة.

هدف تونيز نظرياته، لفهم المعنى الحقيقي لكل من المدرسة العقلية والنظريات التاريخية، عرّف تونيز عن الارادة العاطفية بـ"الارادة الانسانية النابعة تلقائياً من الطبيعة البشرية"، أما الارادة العقلية فهي "الارادة التي تظهر في استجابة لحاجات المجتمع"، والارادة العقلية التحكيمية هي "التي تعمل على انشاء الوحدات الاجتماعية". كما قسم تونيز العلاقات الاجتماعية الى قسمين "علاقات ايجابية وعلاقات سلبية"، والتجمع البشري الى "جماعة محلية" كتوظيف للإرادة العاطفية و "مجتمع عام" كتوظيف للارادة العقلية التحكيمية.

(*) الفهم الحديث للتطور يعتمد على نظرية الاصطفاء الطبيعي، التي وضعت أسسها اساساً في ورقة مفصلية عام 1858 من قبل تشارلز داروين والفرد راسل والاس ونشرت ضمن كتاب داروين الشهير اصل الانواع في الثلاثينات من القرن العشرين، ترافق الاصطفاء الطبيعي الداروينى مع نظرية الوراثة المندلية لتشكل ما يدعى الاصطناع التطوري الحديث، وعرفت ايضا بالداروينية الجديدة، الاصطناع الحديث يصف التطور كتغير في تواتر الاليلات ضمن مجموعة حيوية من جيل الى الجيل الذي يليه هذه النظرية سرعان ما اصبحت المبدأ المركزي المنظم للحياوة الحديثة، نسبة لقدرتها التفسيرية والتنبؤية العالية، تربط حالياً بشكل مباشر مع دراسة اصل مقاومة المضادات الحيوية في الجراثيم، الاجتماعية العليا (eusociality) للارض مع ان هناك اجماع علمي لدعم صلاحية وصحة نظرية ecosystem) في الحشرات والتونع في النظام البيئي (التطور لتطبيقاتها وقدرتها التفسيرية والتنبؤية لاصول الاجناس والانواع الحية، فإن هذه النظرية تبقى في قلب جدالات دينية واجتماعية حول مفاهيمها ومدى صحتها بسبب صدامها مع بعض الرؤى حول نظرية الخلق في بعض الديانات

(**) توماس روبرت مالثوس (14 فبراير 1766 – 23 ديسمبر 1834) باحث سكاني واقتصادي سياسي انجليزي، مالثوس مشهور بنظرياته المؤثرة حول التكاثر السكاني في العصر الحديث. ولقد تلقى مالثوس تعليمه في البيت حتى دخوله كلية "جيسز كوليدج" (Jesus Collge) كامبريدج عام 1784، حيث تخصص في علم الرياضيات لكنه درس ايضا العديد من العلوم وقد حصل على الجوائز التقديرية في الانجليزية واللاتينية واليونانية، والمعروف ان مالثوس لم يكن اول من بحث في نظرية نمو السكان، فابن خلدون بحث في ذلك منذ القرن الرابع عشر حيث تحدث عن الصلة الوطيدة بين عدد السكان ومستوى الحضارة لان عدد السكان عامل هام في تقسيم العمل وفي النمو. وهذا ما اعتقده جميع من جاء بعده من علماء الاجتماع ولكن فضل مالثوس هو في كونه وضع نظرية متكاملة في السكان وقد فرضها على علم الاقتصاد عندما اشار إلى وجود عامل يجب دراسته الى جانب الانتاج والتوزيع والتبادل، ذلك لأن العلاقة وطيدة بين تطور عدد السكان وتطور كمية الانتاج. والجدير بالذكر ان اراء مالثوس عن الازمة الراسمالية لا تعارض آراءه حول السكان وما اعلنه عن حتمية النقص في المواد الغذائية بالنسبة لزيادة السكان، إذ يعتبر أن عدد السكان يزيد وفق متوالية هندسية بينما يزيد الانتاج الزراعي وفق متوالية حسابية كما سيؤدي حتماً إلى نقص الغذاء والسكن. ومن مؤلفاته (بحث في مبدأ السكان) وصاغ فيه نظريته حول السكان والتي اثارت ضجة كبيرة حيث ورد فيها أن الرجل الذي ليس له من يعيله والذي لا يستطيع أن يجد له عملاً في المجتمع سوف يجد أن ليس له نصيباً من الغذاء على ارضه فهو عضو زائد في وليمة الطبيعة حيث لا صحن له بين الصحون فإن الطبيعة تأمره بمغادرة الزمن

خلاصة القول ان التحولات في علوم الطبيعة ادت الى اشكال جديدة من الوفاق بين النموذج النظري المتقطع في الميكانيكا والمتواصل في العضوية الحيوية، كما شكلت الكائن والوظيفة والتوازن والديناميكية والذرة والخلية قواعد ارتكزت عليها العلوم الاجتماعية الجديدة التي رأت النور في اطار تراجع الانساق الثقافية لصالح التاريخ والاقتصاد

ان التحديد بالعوامل اعلاه لا يعني بالضرورة انها الوحيدة في التفسير التاريخي لعلم الاجتماع لأنه من الخطأ الوقوف على تاريخ بعينه يحدد بداية اي علم، واذا كان بالامكان على نحو محدود الاشارة عند بعض العلوم خاصة التطبيقية منها بسبب ظهور (اختراع معين) عند هذا التاريخ او ذاك، فان الامر هو غاية في الصعوبة في علم الاجتماع، لأن الافكار هي انعكاسات لاوضاع اجتماعية، وهذا يقود الى استنباط لهذا التحديد البدئي(*) لعلم الاجتماع الى انه يعود غالباً الى التغيرات الاجتماعية الكبرى كالثورات السياسية او الاقتصادية او العلمية، التي تفرز اوضاعاً واما تأثير عامل المنظرون تنتج على نحو متسلسل نظريات وحلول اجتماعية لا تظهر البتة دفعة واحدة

ودوره في ولادة علم الاجتماع فأنه يمكن بحثه على النحو الاتي 1 – ماركس: الجدل والبركسيس.

ان حضور ماركس الفكري الفاعل في الساحة الاجتماعية – العلمية هي من اهم دواعي الاشارة اليه في التحديد البدئي، فنظريته عن الصراع الطبقي كانت محاولة مصالحة وفكرة طوباوية، معالجة لحالة الاوضاع الاقتصادية المتردية للطبقة العمالية وتأصيل اجتماعي لوضع اجتماعي بدأ يشكل تخندقاً لا يمكن اغفاله في البلدان التي شهدت ثورة صناعية. وفكرة حالمة بمجتمع تسوده المساواة في شيوعيته التي لم تتحقق. يضاف الى ذلك الادلجة التي عملت انتشار فلسفته على صعيدين غربي وشرقي– الاول كانت ماركسية ليبرالية والثاني شيوعية. والامر الاخر الاكثر اهمية، ظهور العديد من الدراسات والنظريات الاجتماعية التي افرزها ماركس سواءً بصورة مباشرة او غير مباشرة كانت في جميع الاحوال ردود فعل نظرية للتوجه الماركسي، واذا لم تكن طروحاته الشمولية – الاقتصادية لم تجعله مؤهلاً ليكون عالم اجتماع فلقد كانت هناك سوسيولوجيا في الماركسية على حد قول هنري لوفيفر.

وأهم تلك الطروحات السوسيولوجية ماديته الجدلية والبراكسيس اما المادية الجدلية فيمكن تحديد مبادئها بما يلي[13]:

- المادية والمثالية: ان تاريخ الافكار ما هو الا تاريخ الصراع بين تصورين للعالم لا يقبلان التبسيط، اذ يؤكد ماركس على اسبقية العالم المادي على عالم الافكار، فكل محاولة تركيب بين هذين التصورين تؤدي الى مثالية تتنكر لذلك.

- الواقع والتمثلات: يؤكد التصور المادي على وجود العالم المادي بمنأى عن التمثلات التي قد تكون لدينا بشأنه، الا انه يجب ان لا نخلط بين ما هو مادي وما هو فيزيقي: تتعلق الاحاسيس والافكار من وجهة نظر المادية الجدلية بالعالم المادي من حيث انها خارجية بالنسبة للكائن (الملاحظ) فهي اجزاء مكونة للعالم المحيط به، وبتعبير آخر يبقى الواقع مستقلاً عن الوعي، ولكن في ذلك ثنائية خاطئة، فاذا كان وجود الكائن مستقلاً، فالمبادلة غير موجودة ومن هنا مقولة ماركس الشهيرة ((ليس وعي الانسان هو الذي يحدد وجوده، وانما وجوده الاجتماعي هو الذي يحدد وعيه)).

- المادة بمثابة حركة: ليست المادة شيئاً جامداً، بل بالعكس الحركة هي مبدأ المكون للمادة ، وما السكون الا وضع خاص (او مؤقت) للحركة ومعناه ان المادة لا تتوقف عن التطور، والتحول والتعفن، وهذا تجديد في مفهومي المسار والجدلية الهيغليين، فلا يمكن في الدراسة والفهم عزل الظاهرة الطبيعية (والاجتماعية) عن ظرفها بل يجب اعتبارها في العلاقات العضوية التي تربطها بالظواهر الاخرى.

- مبدأ التناقض: تأخذ علاقات العناصر او الظواهر فيما بينها وحركة المادة (او المجتمع) انسجامها في مبدأ التناقض، فعلى اساس هذا المبدأ يتكون كل شيء ، وكل ظاهرة، بوحدة المتضادات، ومعناه ضرورة اعتبار كل عنصر بمثابة تناقض بين مكونين، ويجد التناقض حله في اختفاء احدهما او تحويله الى تناقض آخر يولد تناقضاً جديداً، وهو ما يميز كل مسارات التطور والتغيير بالتناقض، بمفرده، فذلك لا معنى له، وبالتالي يجب اعتبار المتضادات في علاقاتها المتبادلة.

أما البراكسيس[*] **(Praxis)** في المادية الجدلية، كما ان المعرفة العملية (حسية ومباشرة) تعقبها النظرية (تنظيم المعارف، "معرفة ملموسة/ ملموس مفكر فيه كما يقول ماركس، والتي توجه بدورها الممارسة التي لا معنى لها ما لم تحمل ممارسة تنظمها وتحولها ، فالرابط نظرية – ممارسة، عضوي ودائم اذ اللفظيين في اثراء متبادل، وعليه يشكل هذا السعي بين النظرية والممارسة احد اسس المادية الجدلية.

(الممارسة) فانها تؤشر على صحة النظرية اذ العلاقة نظرية/ ممارسة مرتبة تقليدياً لصالح الاولى، ومحولة جذرياً

وتشكل البراكسيس ايضاً شرط صحة النظرية التي لا تنفصل عنها، فإذا كانت الحقيقة الموضوعية غير موجودة الا بعلاقتها مع الواقع، فالبراكسيس (ممارسة اجتماعية ملموسة) تتشكل بصفتها شرط المعرفة الحقيقية وهذا ما يقوله ماركس (فمسألة معرفة ما اذا كان الاعتراف للفكر الانساني ان يبرهن على الحقيقة في الممارسة، اي واقع وقوة فكره في هذا العالم وفي هذا الزمان، وما النقاش حول واقعية او عدم واقعية فكر منعزل عن الممارسة الا نقاشاً مدرسياً خاصاً).

وتعد مشاركة ماركس في تنظيم الحركة العمالية الدولية ، وبصفة عامة رجوع الحركة العمالية الى الماركسية للقضاء على الرأسمالية مثالاً على دور البراكسيس (الممارسة) في المادية الجدلية.

2– ماكس فيبر: سوسيولوجيا الفهم بين ديلثي وريكرت.

اما بالنسبة لماكس فيبر فان سوسيولوجياه المعرفية – الفهمية منحته مكانة خاصة في علم الاجتماع وبتحليل انتاجه يجعله احد متصدري رواد علم الاجتماع ففي الوقت الذي كانت فيه سوسيولوجية ماركس ركزت على الجوانب المادية وبعدية الفكر، وتعاملت مع الواقع كأشياء مادية خارجية شكلت بناء الانسان الفوقي مركزة في الوقت ذاته على مفهوم التناقض الذي يعني تغيراً مستمراً، وقفت سوسيولوجية فيبر على العكس منها تماماً حيث الفرد اولاً، لكنه بشقين كانسان (شخص) يتعامل مع محيطه على اساس الفهم، وكانسان اجتماعي (ضمن جماعة) يبني علاقات اجتماعية متعددة كانت لخلفيته الاسرية دورها الهام في هذا التشكيل من خلال صالون الاسرة (اب برلماني وأم مثقفة) يرتاده سياسيون ومفكرون اجتماعيون واقتصاديون متخصصون في علوم اخرى، وقد كان صراع المناهج ضمن نقاشات رواد صالون الاسرة يعكس في واقع المانيا العلمي واوربا الى حد ما وقد افرز ذلك صدور عدة مؤلفات في المنهجية الاقتصادية وذلك بين مؤيدي المدرسة التاريخية القديمة في الاقتصاد السياسي كنياس وليام روشي (**1817–1914**) ومؤيدي المدرسة الجديدة (مع شمولار (**1817–1838**) و (اشتراكيو المنبر) من

جهة، ومؤيدي المدرسة الحدية (كارل مينجر) (1840–1921) والكانطية الجديدة ممثلة بدلتي الذي حاول التمييز بين علوم الطبيعة والفكر. عاش فيبر في هذا الجو ايام دراسته للقانون وتحمس النقاش ابتداء من سنة 1903، وعليه لا يمكن فهم مقاله الاساسي حول موضوعية المعرفة في العلوم والسياسة الاجتماعة (1904) إذا تجاهلنا خلفية الازمة المنهجية[13].

في هذا الاطار، ان ما يميز التخصصات عن بعضها البعض هي وجهة النظر المتبناة، وتتمثل وجهة نظر (علم اجتماعي) معين في بحث احادي الجانب في الحياة الثقافية حسب الطابع الاقتصادي الاجتماعي (او من وجهة النظر المادية) فعوض ان يكون هذا الموقف تحديداً مؤقتاً، مرحلة نحو علم عام للاجتماعي، اصبح يشكل في الواقع تحديداً ضرورياً: لا يدرس الاجتماعي بطريقة علمية الا عن طريق وجهات نظر خصوصية، وتشكل وجهة النظر الاقتصادية واحدة من بين وجهات نظر اخرى ممكنة.

يستأثر فيبر ببعض اطروحات ديلتي(*) وصديقه ريكرت(**)، مثل الموضوعية باعتبارها منظوراً، وادراك المعنى والحذر من الافكار المسبقة للمذهب الطبيعي. لم يكف فيبر عن التنديد بالخطأ المتمثل في التعميم انطلاقاً من احدى وجهات النظر هذه، مكرراً المثال النمطي المتمثل في المادية التاريخية: فان أقرَّ بالقيمة الكشفية الكبيرة للماركسية كتحليل للظواهر الاجتماعية من وجهة النظر الاقتصادية، فهو في الوقت ذاته يرفضها في زعمها الطابع الحصري كتصور للعالم او كتصور مادي للتاريخ، والامر نفسه بالنسبة لكل المناهج العلمية الاخرى[13].

وقد كان لسوسيولوجيته الفهمية والمنهجية اثرها الكبير على توجه النظرية الاجتماعية التي اتخذت فيما بعد من الفعل الاجتماعية وحدة لتحليلها الاجتماعي، وفي عموم النظريات القصيرة الامد. وقد كانت هناك جملة من التوجهات الكبرى في سوسيولوجية فيبر اهلته ليكون رائداً لعلم الاجتماع، يمكن الاشارة الى بعضها[13].

1- التأكيد الاساسي على طريقة خاصة بعلوم الثقافة وبالتالي بالسوسيولوجيا مثلما هو الحال بالنسبة لعلوم الطبيعة وحتميتها، ويبقى التفسير السببي خاضعاً دوما لفهم قبلي لمعنى النشاط الاجتماعي.

2- الطابع العارضي للسوسيولوجيا المغذاة بالمقاربة التاريخية (تاريخ الاديان، تاريخ الاقتصاد) والتي تعذر عليها الابتعاد عن العلوم المجاورة التي تستعمل مثلها النمط المثالي كوسيلة معرفية.

3- الامتياز الذي يوليه للعقلانية بحسب الغاية، وقد يعود هذا الامتياز الى تصور ذي نزعة اقتصادية في المقاربة السوسيولوجية .

التمايزات الابستمولوجية الذكية عند فيبر ورفضه القوي العمل بالاحكام القيمية في العلوم وكذا جوهرية الانتظامات الاجتماعية وأخيراً التأكيد على ان الطابع الافتراضي والضعيف للاستنتاجات العلمية لم يسهم ابدأ في قيام مدرسة، ولكن ذلك لا يعني ان تأثيره لم يكن كبيراً. ومن ثمة ربما قد اجتذب علماء الاجماع الذين يميلون الى الفلسفة التاريخية.

3-اميل دوركهايم : المجتمع والظاهرة الاجتماعية.

اما دوركهايم فلاعتباره من الرواد دواعي عديدة منها الاجماع على اصالة افكاره التي ما زالت مصدراً للنظرية الاجتماعية وفي هذه الافكار تصوره عن الاخلاق حيث دافع عن ثلاث اطروحات لدراستها هي:

1- يعد التضامن الاجتماعي منبعاً للخلقية وليس بمبدأ متعال

2- يجب التأكيد على نسق قواعد التصرفات (في شكلها المتبلور (القانون مثلاً) لأن (كل فعل اخلاقي قوامه قاعدة معتمدة).

3- من الضروري ان تكون الطريقة امبريقية ، تنطلق من دراسة الظواهر الاخلاقية ((بمعنى هذا الزخم من القواعد الخاصة التي تحكم التصرف بصفة فعلية))، وليس من بعض القواعد العامة. وعليه فالقواعد الاخلاقية ليست اخلاقية الا في علاقتها ببعض الظروف التجريبية وبالتالي لن نفهم شيئاً عن طبيعة الظواهر الاخلاقية ما لم نحدد بدقة هذه الظروف المرتبطة بها.

ومن الافكار الاصيلة الاخرى طرحه لفكرة تقسيم العمل وتطور المجتمعات[13]:

وعلى غرار علماء اجتماع القرن 19 وبداية القرن 20 (سان سيمون كونت، ماركس، سبنسر) حاول دوركهايم تأسيس قانون عام لتطور المجتمعات ، فيرى في تحليل تقدم تقسيم العمل ونتائجه مقاربة خصبة ، ذلك ان تاريخ المجتمعات في نظره يمتاز بالانتقال من التضامن الالي الى التضامن العضوي.

حيث يقول دوركهايم ((اما بالنسبة للسؤال مبعث هذا العمل فيتمثل في مسألة العلاقة بين الشخصية الفردية والتضامن الاجتماعي، وكيف يتجه الفرد نحو استقلالية اكبر وهو في الوقت نفسه اكثر ارتباطاً بالمجتمع؟ لا يمكن ان ننكر ان هاتين الحركتان المتعارضتين مظهرياً متزامنتين في سيرهما ويبدو لنا ان ما يشكل حلاً لهذا التناقض الجلي هو تحول التضامن الاجتماعي بفعل التقدم المتزايد لتقسيم العمل)).

بعيدة عن ان تكون مقتصرة على العالم الاقتصادي، تطل هذه الحركة ايضاً الوظائف السياسية والادارية والقضائية والفنية والعلمية، حركة تتمثل في تخصص متزايد في تطور الكائنات الحية، وهنا يتبادر مشكل عملي خطير حول طبيعة الروابط بين الافراد والمجتمع بالتساؤول عن ما اذا كان من الضروري ان يكون الفرد بمثابة كل يحقق اكتفاءه الذاتي او انه جزء من الكل، اي عضو؟.

وبما ان ((القانون يعيد انتاج الاشكال الاساسية للتضامن الاجتماعي)) يكفي تصنيف مختلف انواع القانون لايجاد مختلف انواع التضامن الاجتماعي، خاصة تلك التي ترتبط بتقسيم العمل فالقواعد القانونية نوعان، فاما مؤسسة على عقوبات قمعية، واما قائمة على عقوبات تاهيلية (اعادة الاوضاع الى ما كانت عليه) في المجتمعات التقليدية حيث يهيمن النوع الاول يوصف التضامن بالالي او بالتشابه (تشابه كل الافراد) حيث التخصص ضعيف والطائفة ملتحمة جداً، انه مثال المجتمعات البدائية او القديمة. اما في المجتمعات الحديثة فالقانون اصلاحي يهيمن بفضل هيئات مختصة وموظفين اكفاء، كما ان الوعي الجماعي ضعيف والتماسك حاصل عن تقسيم العمل، وفي هذه المجتمعات يوصف التضامن بالعضوي، حيث يرتبط كل واحد اشد الارتباط بعمل الاخر، ولكن لديه في الوقت نفسه فضاء فعل خاص.

ومجمل القول ان دوركايم يقترح الاطروحات التالية:

1- مفارقة المجتمعات الحديثة، حيث اصبح الفرد اكثر استقلالية وهو في ذات الوقت اكثر ارتباطاً، ببساطة بنمط التضامن الذي يتطلبه تقسيم العمل اذ بتلاشي التضامن الالي، يحافظ اختصاص الوظائف على التماسك الاجتماعي عبر التضامن العضوي.

2- تضامن مع (moralite)ليس المجتمع بغريب على الاخلاق ، فالانسان ليس بكائن اخلاقي إلا لأنه يعيش في مجتمع، اذ الاخلاقية مجموعة، اخلاقية تتغير مثلما يتغير هذا التضامن.

3- يشكل تقسيم العمل قاعدة الن ظام الاخلاقي في مجتمعاتنا وهو منبع التضامن الاجتماعي، فواجب الانسان يتمثل اذا في القيام بوظيفة[13].

ويطالعنا دوركهايم بطريقته العلمية بتصوره المحايث لعلم الاجتماع للعلم الطبيعي خاصة البيولوجيا انتهى به الامر الى وضع قواعد علمية لعلم الاجتماع.

في مطلع تلك القواعد اعتبار الظاهرة الاجتماعية ، ظواهر شيئية تستدعي استبعاد المفاهيم القبلية.

وتأتي بعد ذلك ((القواعد المتعلقة بتكوين الانماط الاجتماعية)) يجب ان ننطلق في تصنيف المجتمعات من الاكثر بساطة : العشيرة او ((مجتمع أحادي الجزء)) على شكل عصبة، فنصل عن طريق التركيب الى بناء)) السلم الكامل للانماط الاجتماعية، يطبق دوركهايم هذه القواعد بحذافيرها في مؤلفه الصور الاولية البدائية الذي اختص بدراسة الظواهر الدينية.

تنطلق ((القواعد المتعلقة بتفسير الظواهر الاجتماعية)) من ان نفعية ((او وظيفة) الظاهرة الاجتماعية غير كافية لتفسير وجودها ، فذلك خلط بين نتيجة الظاهرة وسببها وفي ذلك قوله ((يجب البحث عن السبب الحتمي للظاهرة الاجتماعية بين الظواهر الاجتماعية السابقة، وليس بين احوال الوعي الفردي)) وهو مبدأ استقلالية التفسير السوسيولوجي الذي دافع عنه دوركهايم بقوة[13].

4 – باريتو: الرواسب والمشتقات

وبالانتقال الى باريتو تتصدر نظريتي الرواسب والمشتقات والصفوة اعماله الاجتماعية التي لاقت صداً واسعاً في علم الاجتماع وخاصة ترابطها على نحو منطقي حاول من خلالها ان يضفي الطابع العلمي على علم الاجتماع حيث يعتقد انه كي يتم تجاوز الفجوات غير العلمية على علم الاجتماع ان يستخدم الامبيريقية. فهو في كتابه ((المقدمة)) يعرض كثيراً من الملاحظات الناقدة لما يسمى بالنزعة العلمية الزائفة عند كونت وسبنسر ، كما نجد ايضاً اشارات ساخرة ((للديانات)) العلمانية عن التقدم ، والانسانية ، والديمقراطية. ويرى باريتو ان ما يجنبنا الوقوع في هذه الفجوات غير العلمية، هو ان يستخدم علم الاجتماع المنهج التجريبي المنطقي Logico Experimental Method ، والذي يعتمد فالعالم التجريبي (القابل J.S. Mill أساساً على الملاحظة والاستنتاج المنطقي وفقاً لقواعد الاستقراء التي حددها جون ستيوات ميل للملاحظة) – في رأي باريتو– يتكون من ظواهر وعلاقات من الممكن ادراكها بالحواس ، وعادة ما يتيسر اخضاعها للقياس.

ومع ذلك كله، فقد عالج باريتو في كتابه (المقدمة) – بتعمق – مجموعة من الظواهر التي لا تنتمي الى هذا العالم التجريبي، وان كانت تقوم بدور كبير في الحياة الاجتماعية. وهذه الظواهر هي: الافكار، والمجردات، والاراء، والمعتقدات، والعواطف. ولكنه اعتقد ان مهمته الاساسية تتمثل في ان يجعل من هذه الظواهر وقائع ممكنة الملاحظة، بحيث تنتمي الى عالم الوقائع كما حدده هو. ولقد ترتب على ذلك ان حذر باريتو من اتباع اجراءات لفظية. فهو يذهب الى ان (العلوم الطبيعية لم تبن على اساس دراسة وتصنيف مصطلحات اللغة العادية، بل هي تنهض على دراسة الوقائع وتصنيفها، ومن ثم يتعين علينا ان نفعل ذلك بالنسبة لعلم الاجتماع.

5 – ابن خلدون: العوائد

والى جانب محك الثورات وخارج حدود اوربا وتجاوزاً للتاريخ البدئي الذي يتحدد بها، تقف مقدمة ابن خلدون(*) لتتضمن نتاجاً علمياً ، من بعض وجوهه متماثل من حيث ظروف الانتاج التي اتسمت ببعض نقاط التشابه فاذا كانت الثورات الثلاث وراء ظهور الرواد في اوربا، فان تعاقب الاسر على الملك، وقيام دول محل اخرى، وانعكاسات كل ذلك على مجمل الواقع الاجتماعي في شمال افريقيا وبلاد الاندلس كانت وراء ظهور المقدمة التي تضمنت قواعد اجتماعية لتفسير التاريخ والاجتماع الانساني من منطلق شامل، وقواعد اخرى تشريحية لمعاني البدو والحضر والسياسي والديني والعلمي.

ومن العلماء الذين يجعلون ابن خلدون ضمن الرواد فريق جاستون بوتول وقد انقسمت آراء المفكرين الى اثنين ، حول ريادة ابن خلدون– فريق بوتول ، وفريق آخر ذهب الى ريادة كونت ودوركهايم.

وعلى قاعدته المعرفية ، الانسان ابن عوائده، كان هو ابن عوائده ، عوائد تاريخه الاسلامي والاقليمي والشخصي، وعوائد عصره الاجتماعي والسياسي والديني والقبلي، لم يكن لينزوي عن تاريخه وعصره، فآثر ان يستنبط منه الدروس الحقيقة والعبر الواقعية من غير مجاملات في العلم والتاريخ ، وكأنه في نتاجه العلمي يخاطب عصره والقرون التي سبقته والتي تلته، وهذه الحقيقة تبقى رغم عوادي الزمن، حيث ان رؤيته العلمية– الواقعية التي ترتكز على التجريب والملاحظة المشهودة، كانت النور الذي أرسى عليه دعائم علمه الجديد، وحدد به معالمه، فانطلق منها دارساً وشارحاً التاريخ، فكان فكره رسماً عينياً لواقعه بلا تكلف.

ومما يبدو عليه ان ملاحظاته– وهو المعروف بالذكاء والنباهة– لم تكن تذهب سدى بل كانت تختزن نشاطه السياسي والعلمي حتى اختمرت وآتت أكلها، لحظة اعتزاله بقلعة بني سلامة عام 776هـ، فكأن تلك المعارف قد واتته الهاماً.

ومهما تباينت رؤية المؤرخين تجاه علمه[13] الجديد، فان الخلاصة لا يختلف عليها اثنان وهي ان ثمار علمه كانت واقعية ، فكان العالم الذي حدد بنظريته المعرفية "المسافة الكائنة بين المعرفة والواقع، وحاول فهم كيفية قيامها والحلول المطروحة لها متجنباً كل المسائل الفرعية ومستخرجاً كل النتائج المترتبة ، فالفكر تجاه الكائنات وفي علاقته معها يكون معقولات مجردة مطابقة قدر الامكان للموجودات المدركة [13].

ان العلم الجديد الذي أتى به ابن خلدون لم يكن علماً ميتافيزيقياً، ولا علماً قبليا أمل وجوده، وانما هو علم ادركه بذكائه، واستكمل شرط بنائه من المجتمع لذا فقد كان ميدان بحثه الفكر الاجتماعي، لأنه يمثل خلاصة للسلوك، واذا كان قد آمن بالفلسفة في لباب المحصل في أصول الدين حتى انه عدها أشرف العلوم عندما كان شاباً لم يختبر الحياة بعد، وعندما خبرها سلوكاً وفكراً وطحنته التجارب الاجتماعية والسياسية، فانه عني ، بالفكر الذي هو خلاصة الواقع وليس التأمل ، بالفكر الذي (يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه ابناء جنسه، والاجتماع المهيأ لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الانبياء عن الله تعالى، والعمل به واتباع صلاح أخراه، فهو مفكر في ذلك كله دائماً لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين، بل اختلاج الفكر اسرع من لمح البصر) [13]، فالفكر الخلدوني فكر واقعي ، متغيراته هي تحصيل المعاش والتعاون والعمل وهي متغيرات سببية ترسم صورة الفكر الاجتماعي– ميدان بحثه– حيث تفيد التجربة في ترسيخه ما ليس عنده من الادراكات فيرجع الى من سبقه بعلم او زاد عليه بمعرفة او ادرك او اخذه ممن تقدمه من الانبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه ، فيلقن ذلك عنه ويحرص على اخذه وعلمه[13].

والتساؤل العلمي الذي يطرح نفسه لماذا هذا الإجماع على هؤلاء العلماء، يمكن القول ان هناك اربعة عوامل كانت وراء ذلك:

أولا: ما أسماه ايمانويل فالرشتاين(*) بثقافة علم الاجتماع التي بدأ بالتساؤل عن معناها وأجاب بأنها مجموعة المسلمات المنطقية والممارسات المشتركة وبكل تاكيد ليست مشتركة بين كل اعضاء المجموعة في كل وقت ولكنها مشتركة بين معظم الافراد في معظم الوقت

انها مشتركة ولكن الاهم من ذلك انها مشتركة لا شعورياً بحيث انه نادراً ما تقع مناقشة المسلمات المنطقية. يجب ان تكون بالضرورة مثل تلك المسلمات المنطقية بسيطة جدا بل تافهة؛ اذ عندما تكون المقولات رفيعة ودقيقة وفكرية المستوى فمن الصعب ان يشترك فيها الكثيرون ويكونوا بالتالي قادرين على انشاء جماعة عالمية من العلماء. وتجدر الاشارة الى انه توجد فعلاً مجموعة من تلك المسلمات المنطقية المشتركة بين علماء الاجتماع، ولكنها لا توجد بالضرورة اطلاقاً بين الاشخاص الذين يسمون انفسهم مؤرخين او علماء اقتصاد.

وان تلك المسلمات المنطقية تحتوي على ثلاثة افتراضات (مسائل) بسيطة ، واقع الحقائق الاجتماعية ، ودوام الصراع الاجتماعي، ووجود آليات الشرعية لاحتواء الصراع فهي تكون في مجموعها حداً أدنى من ارضية متناسقة لدراسة الواقع الاجتماعي. ان هذه المجموعة من المبادىء ليست مصقولة. وهي بالتأكيد ليست بالكافية في تصورها للواقع الاجتماعي. فهي تمثل نقطة بداية استوعبها معظمنا (Axioms)الاساسية ونستعملها عموماً كمسلمات (مقدمات منطقية) غير قابلة للمساءلة والنقاش . وهذا ما يُسمى (ثقافة علم الاجتماع)، وهذا في تصور إيمانويل فالرشتاين جوهر تراثنا (الفكري) السوسيولوجي، لكنه تراث حديث التكوين، واذا كان قوياً فهو هش أيضاً.وقد خلقت هذه الثقافة مصدراً موحداً للباحثين بشأن هذه الريادة[13].

ثانياً: العلم: فحسب مراجعة اعمال هؤلاء الرواد يتضح اصرارهم على وصف اعمالهم بالعلمية ، ومحاولتهم بناء منطقي لرؤاهم وقضاياهم التحليلية... ويبدو ان هذه الصفة لا تعني شيئاً جديداً في وقت سيادة العلم، بعد ما فرض سلطانه على مجالات الحياة العلمية وحتى الاجتماعية. اما اذا وضعنا في الاعتبار صور الواقع العلمي أبان ظهور هؤلاء الرواد نجدها كانت عاملاً مهماً في ترسيخ مفهوم العلم فعلى التوالي كان ظهور ابن خلدون أواخر عصور التقدم العربي، وبمقدمته كان آخر شمعة اضاءت للمعرفة قبل ان تحط عصور الظلام حالها في الفكر العربي فكان من الطبيعي ان يعود الباحثون الى المقدمة، وقد عالجت ما أصاب المجتمع من امراض وهنات ، خاصة ان معالجاته امتازت بالواقعية حسب جُلُّ المفكرين[*] ، اما ظهور الرواد الاخرين فانه حسب تحديدنا السابق لعبت عوامل ثلاث الى ظهور ابداعاتهم الفكرية وما اصاب مجتمعاتهم من تغير ايجابي في سلم التطور الاجتماعي, واذا كان هذا السلم عربياً قد نحى منحى سلبي ، فان العلم في التغيرين السلبي والايجابي، كان السمة التي ميزت انجازاتهم ، وبذات الوقت ادراكهم لأصالة منجزاتهم وعلميتها في مطلع تطور العلم مع مطلع الثورة الصناعية.

ثالثاً: الاصالة والتلقائية: الاصالة في اعمال هؤلاء الرواد كانت في جانبين هما الموضوع والمنهج، فعلم الاجتماع كموضوع لم يكن من السهل التعامل معه انه مجرد موضوع كباقي المواضيع، بحكم اهتمامه كعلم. ولعله فيما شكله من اهمية بالنسبة للواقع الاجتماعي، كان الاهتمام به، هو الذي جعل من مقدار الاصالة المتوفرة فيه دليلاً على اهميته العلمية والاجتماعية، ولعل نقل تصور ميلاد علم الاجتماع وتطوره في الولايات المتحدة اوضح صورة على اهميته كموضوع حينما شكلت شيكاغو ميدانه ومختبره التجريبي، فكان مفهوم الاصالة هو الآخر اكثر وضوحاً، ولعل الظهور المتزامنين ما بين دوركهايم وفيبر وباريتو هو من العوامل التي جعلت هذه الاصالة محط اهتمام حيث كان انتاجهم متشابها من هذه الزاوية رغم عدم التقائهم ، وحتى بالنسبة لماركس ومن قبله ابن خلدون.

جامعـــــة الموصـــل

كليـــــة الآداب

قسم : علم الاجتماع

اسم المادة الدراسية: نظريات - دكتوراه

اسم التدريسي : ا.د. شفيق ابراهيم صالح

العام الدراسي 2024-2025

جامعـــــة الموصـــل

كليـــــة الآداب

قسم : علم الاجتماع

اسم المادة الدراسية: نظريات - دكتوراه

اسم التدريسي : ا.د. شفيق ابراهيم صالح

العام الدراسي 2024-2025